مصاري

«الله» ما أن سمعت تلك الكلمة حتى انتفض جسدي كله ونظرت من حولي في رعب وانتظرت مصيري المحتوم.

سمعت ذلك الصوت مرة أخرى وهو يقول منادياً في توسل: «لله يا بيه، مريضة ومحتاجة!»..

انتظرت قليلاً ثم بدأ الزلزال.. بدأ كل ما حولي في الاهتزاز ونظرت إلى أخي الذي يكبرني بتسع سنوات فرأيته يبتسم في هدوء، فقد عرف بخبرته أنها لحظة الفراق فربما لا يرى بعضُنا البعض الآخر مرة أخرى أبداً.

نظرت إليه في امتنان وأمل وقلت له: من يعرف ربما يجمعنا القدر مرة أخرى في مكان آخر؟

قال لي متهكماً: ولكني أرجو أن يكون صاحب ذلك المكان الجديد أكثر بخلاً من صاحب مكاننا هذا حتى لا نفترق بهذه السرعة في المرة القادمة! ابتسمت إليه وهممت أن أقول شيئاً ولكن فجأة فُتح الباب ورأيت بأم عيني الضوء ورأيت يداً عملاقة تمتد إليّ وتمسك بتلابيبي وتطبق على أنفاسي، ثم تخرجني من

مكاني بعنف. نظرت إلى أخي نظرة أخيرة مودعة وأشرت إليه بعيني التي انسالت منها عبرات ساخنة متأثرة بحرقة الفراق ووحشة الوحدة.

وعلى عكس عيني تماماً، امتلأت عين الفقير المسكين بنظرة امتنان ونظر إليَّ في لهفة ثم أخذ يدعو لصاحب مكاني القديم بالبركة وبالصحة وبالنعيم الوفير...

امتدت يد الفقير المسكين إلى يد صاحبي ورأيته يطبق عليَّ هو الآخر بقوة ثم يضعني في جيبه وينصرف...

انصرف الرجل الفقير ــ صاحبي الجديد ــ وأخذ يمشي في وهن، وما أن ابتعد قليلاً عن صاحبي القديم نظر خلفه ليتأكد من أنه لا يراه ثم اعتدل في مشيته وتمتم قائلاً في سخط:

«ذلك البخيل لم يعطني إلا جنيهاً واحداً فقط!».

أدخل يده في جيبه وأخذ من جانبي ساعة يد ذهبية نظر فيها فلما وجدها تجاوزت العاشرة مساءً غمغم بكلمات غير مفهومة وبدا وكأنه يهم للرجوع إلى منزله.

أخذت أتلفت حولي في جيبه ودقات الساعة تكاد تصم أذنيّ

«أنت جديد هنا؟ أليس كذلك؟»

نظرت إلى مصدر الصوت وما أن وقع بصري على صاحبه

حتى اتسعت عيناي في دهشة وقلت في هلع: «مائة جنيه!!؟»، ثم عدت لأقول في عدم تصديق «هذا غير حقيقي.. فذلك الرجل فقير ولا يمكن أن».. قاطعني الصوت بوهن وقال: «ولا يمكن ماذا يا بُني؟».. هذا هو درسك الأول يا بني لا تجعل المظاهر تخدعك..».

كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مائة جنيه، فأخذت أحدق فيها متأملاً حتى قاطعتني قائلة: اسمع يا صغيري، أنا أكبرك بتسعة وتسعين عاماً وأنا مسنة ووهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً فاسمع نصيحتي تلك وضَعْها في عقلك ولا تنْسَها أبداً. أبداً.. لا تجعل المظاهر تخدعك، ذلك هو درسك الأول في هذه الحياة.. إننا في هذه الحياة يا بُني كسائقي الأجرة لا نعرف أين سنذهب إلا عندما يوقفنا شخص ما، ولانعرف كم سنأخذ أو ماذا سنأخذ من كل مشوار إلا عندما نصل إلى نهايته.. فَعِ ذلك الدرس جيداً.. أما درسك الثاني هو وأن هذه الحياة مثل رقَعة الشطرنج قد تكون فائزاً فيها وفجأة تصبح من الخاسرين.. فأنا منذ تسعة وتسعين عاماً، عندما كان عمري عاماً واحداً كنت ذات قيمة كبيرة عندما أقارن نفسي بالأجانب كان صاحبي يبدلني بجنيهين من بريطانيا أما الآن فعشرة مثلك لا يماثلون جنيهاً بريطانياً واحداً..

أخذت أفكر ملياً فيما أسمع ثم سألت المائة جنيه فجأة: «أين نحن ذاهبان الآن؟» نظرت إليَّ في إشفاق ثم قالت: «سترى يا بُنَيْ سترى..» دلف صاحبي الجديد إلى منزلٍ بدا من خارجه التواضع الشديد.. وما إن أضاء نور الردهة حتى تشبثتُ في أعلى جيب معطفه المتهالك وهالني ما رأيت..

نظرت إلى المائة جنيه بعدم فهم. فهذا الرجل يتصنّع الفقر وقد أفهم لماذا يبدو منزله متواضعاً من ظاهره حتى لا يفتضح أمره، ولكن ما هالني بحق؛ هذا التواضع الشديد لمنزله من الداخل أيضاً.

وقبل حتى أن أسأل المائة جنيه جاوبتني بعد أن فهمت تساؤلي بخبرتها:

ـ ليكن ذلك درسك الثالث يا بني: إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده، لا أقصد ذلك الرجل بالتحديد فماله أصلاً حرام ولكنني..

قاطعتها بتردد:

ـ أنحن مال حرام؟! ولكن ما ذنبنا نحن؟

ابتسمت وقالت بحكمة:

ـ حرامٌ عليه لا علينا.. ثم أردفت قائلة: ذلك الرجل ليس

بكاذب فحسب، بل إن آفته العظمى هي البخل، البخل حتى على نفسه فيعيش في الحياة الدنيا كالفقراء ويحاسب يوم القيامة كالأغنياء..

خلع الرجل عنه معطفه ونحن فيه ورماه بإهمال على أحد المقاعد ثم وضع يده في جيب سرواله وأخرج منه بعض النقود التي يبدو أنها ما استطاع جمعه في ذلك اليوم.. أخذ يجمع تلك النقود وهو يغمغم بعبارات ساخطة ثم أطلق سباباً فاحشاً وهو يقول في تبرم: «مائتين وثلاثة وأربعين جنيهاً فقط!! تباً.. لم يعد هناك رجال محسنون خيِّرون في هذا البلد!» ثم توقف لحظة وكأنه تذكر شيئاً ورأيته يتجه نحونا مباشرة! نظرت إلى المائة جنيه نظرة خاوية فقالت لي في خفوت: يبدو أنها لحظة الفراق...

وضع الرجل يده في جيب المعطف وكاد أن يلمسني ولكنه وصل إلى المائة جنيه وأخرجها وهو ينظر إليها وقال في ضجر: لا بأس.. ثم قال متسائلاً: أذكر أنه يوجد مائة جنيه أخرى هنا.. ووضع يده مرة أخرى في الجيب. نظرتُ إلى أعلى فوجدت يده تتجه رأساً نحوي.. أخفضت رأسي تلقائياً حتى أمسك بتلابيبي بلهفة وأخرجني ونظر إليَّ وهو يقول بسخط: ماذا؟! جنيه واحد!! أين المائة جنيه الأخرى؟!.. وأطبق عليّ في قسوة وكاد أن يهشم ظهري ثم رماني بلا إنسانية.. سقطتُ

على المنضدة بعنف وارتطمت بزجاجة خمر نصف فارغة ثم تدحرجتُ و... وسقطت من النافذة... أخذت أتهاوى ويقذفني الهواء حتى لامست الأرض وتدحرجتُ قليلاً حتى اصطدمت بشيء.. نظرت إلى أعلى في تأوه فرأيت رجلاً مُسناً ذا لحية بيضاء ينظر إليَّ ثم ينحني ويأخذني في يده وينظر إليّ مرة أخرى بتعجب.. كان رجلاً تظهر عليه ملامح الفقر الشديد. كل شيء كان يدل على ذلك: ملبسه المتواضع وظهره المنحني وتقاطيع وجهه التي توحي بطيبة شديدة ممزوجة بويلات السنين..

أمسكني برفق وهو يقول: سبحان الله.. نظر إلى أعلى إلى شقة الرجل البخيل. وأخذ يصعد الدرجات ببطء ووهن ليعيدني إلى صاحبي.. طرق الباب وسط لهاثه.. وسمعت وقع أقدام البخيل في الناحية الأخرى للباب ثم توقفت ثم سمعته يقول بخشونة: ماذا تريد يا حاج عبد الرزاق؟ قال صاحبي الجديد وهو يلهث: لقد سقط منك ذلك الجنيه وأردت...

قاطعه الرجل بوقاحة وهو يقول: ماذا؟ أيها الفقير المتخلف. أتطرق الباب عليّ في هذه الساعة لتعيد إليّ جنيهاً واحداً.. أنا أعرف ماذا تريد. أنت تريد أن تستعطفني بتلك الحيلة لأعطيك أكثر.. لستُ أنا مَن تضحك عليه بتلك الحيل.. اذهب يا حاج عبد الرزاق قبل أن أطلب لك الشرطة!

قال له الحاج عبد الرزاق وهو ينصرف: «الشرطة؟ وعلى إيه بس؟..».

حملني الحاج عبد الرزاق برفق وهو يحوقل بهدوء ومضى في طريقه بوهن.. سمعته يسأل أحد المارة عن الوقت فلمَّا رأى أن الليل قد انتصف أسرع الخُطا بعض الشيء حتى وصل إلى منزل فَخْم وخَبَّط على بابه في هدوء.. حتى فُتح الباب وطالعه رجلٌ وقور بلباس النوم.. قال له في دهشة: «حاج عبد الرزاق؟.. هل أنت بخير؟»

قال له الحاج عبد الرزاق وهو يضع يده في جيبه ويخرجني برفق وهو يقول:

أنا آسف يا سيادة الدكتور لأني جئتك في هذه الساعة.. ولكن يا سيدي مَحَدِّش ضامن عمره.. لقد جئتك لكي أسدد لك باقي ما أقرضتني إياه الأسبوع الماضي. قال له الدكتور بدهشة وتأثر: يا حاج عبد الرزاق لقد قلت لك أنني لست متعجلاً ذلك الجنيه على الإطلاق.

معلش عشان خاطري.. خذ جنيهك حتى أستطيع أن أنام وأنا مرتاح البال الليلة.. فلم أنم الأسبوع الماضي كله لذلك السبب.

أخذني الرجل وهو يقول للحاج عبد الرزاق: أنت رجل طيب يا حاج.. بارك الله لك.

قال له الحاج عبد الرزاق وهو ينصرف: الحمد لله. أنا راض بما قسمه الله لي لذا فأنا أغنى الناس.. الرزق يا سيدي في أشياء كثيرة وليس في المال فحسب، فهناك الرزق في الدين والرزق في العلم والرزق في الصحة.. أما الرزق في المال فهو ليس فقط المال الذي يأتيك ولكنه المال الذي تصرفه أيضاً..

ثم قال ببطء وهو يشير إليّ: من يملك جنيهاً يا دكتور قد يكون أغنى ممن يملك عشرة جنيهات..

قال له الدكتور وهو يبتسم: وكيف ذلك يا حاج عبد الرزاق.. ؟

قال له الحاج عبد الرزاق وهو يستدير: من يملك جنيهاً ويصرف خمسين قرشاً أغنى ممن يملك عشر جنيهات ويصرف إحدى عشر يا دكتور. قالها ثم مضى واختفى في ظلام الليل..

نظر إليّ الدكتور وهو يقول: ما أعظمك يا حاج عبد الرزاق حقاً من يؤتَ الحكمةَ فقد أوتي خيراً كثيراً.. ثم نادى ابنه وهو يقول: تعالى يا أحمد.. سأعلمك شيئاً أريدك أن تذكره دائماً.. ولو فهمت هذه الحكمة فسأعطيك ذلك الجنيه..

انشرحت أسارير الصبي وهو يقول: ممتاز يا أبي.. بذلك أكون قد ادخرت عشرة جنيهات وكما وعدتني سنذهب لنضعها في البنك يا أبي..

أومأ الأب برأسه موافقاً وهو يقول: نعم. ووعد الحر دين عليه يا أحمد غداً إن شاء الله سنذهب إلى البنك. وازدردتُ لعابي بصعوبة...

في اليوم التالي كنت ملقى في داخل خزانة حديدية داخل البنك مع حزمة جنيهات أخرى، وفي الظلام سمعت صوتاً يقول متبرماً: متى يخرجوننا من هنا؟!. أكاد أختنق..

تحسست ظهري فوجدتهم قد ربطوا شيئاً ثقيلاً به حتى كدت أمشي بصعوبة... لم أعرف ما الذي ربطوني به... حاولت أن أستدير ولكنني لم أستطع... وجهت سؤالي إلى مصدر الصوت السابق وأنا أقول بوهن: هل تعرف ما المربوط بظهري؟!

جاوبني الصوت في سخرية: «لمّا أعرف ما المربوط بظهري أنا أولاً...».

قلت في إباء: هل الجميع كذلك؟..

جاوبني صوت آخر وهو يقول: نعم: أنا أيضاً أحس بشيء مربوط في ظهري ثم تداخلت الأصوات كلها تؤكد نفس الشيء. قلت بصوت قوي: أبناء قومي. لا يجب أن نجعلهم يتحكمون فينا كما يحلو لهم.. لقد صرنا محبوسين في ذلك السجن دون تهمة ودون ذنب إن ذلك ضد القانون.. لابد..

قاطعني صوت هادر: قانون؟ قانون إيه؟! إنهم هم صانعو القانون.. جاوبه صوت آخر: لقد سمعت خلسة أنهم يستطيعون أن يسجنونا بدون سبب في الحالات الطارئة..

جاوبه صوت آخر: نعم أنا أيضاً.. نعم أردف في تردد وفي صوت خفيض: وسمعت أيضاً أنهم قد مدوا ذلك القانون لمدة ثلاث سنوات!...

تعالت أصوات الجنيهات بين ساخطٍ وغاضب وازدادت الجلبة داخل الخزينة حتى صحت بعنف: كفى.. حتى نستطيع أن نخرج من هنا لابد أن نتعاون ونتحد.. وقبل كل شيء لابد أن نعرف المربوط في ظهرنا، لأنه قد يكون جهاز تسجيل أو تصوير.

سكت الجميع عندما قلت ذلك... فأردفت.. سأنام أنا على بطني وأحدكم يحاول أن يعرف المربوط في ظهري..

نمت على بطني وتردد أحدهم قليلاً ثم حسم أمره بأن أخذ يتحسس في الظلام الشيء المربوط على ظهري ثم قال في دهشة.. إنه كائن شبيه بالجنيه ولكنه أكبر حجماً قليلاً.. تابع قائلاً: لا.. إنها ليست خمسة جنيه فهي أصغر قليلاً.. فجأة قال بدهشة: ما هذا إنه يتحرك..

أحسست بذلك الشي يتحرك من فوقي وكدت أحاول الوقوف

ثانية حتى اخترق صوت في الظلام يقول للجنيه الآخر: ماذا تظنك فاعلٌ بي؟!

تسمّر الجميع في خوف.. جنيه واحد لم يخف.. إنه أنا فمشاعري في ذات اللحظة كانت لتوصف بالدهشة أكثر من الخوف فلم يفهم أحدٌ العبارة السابقة إلا أنا فهي لم تكن بالعربية بل كانت بالإنجليزية بل بالأحرى بالأمريكية..

استدرتُ في عنف وأنا أقول بدهشة: دولار؟!! ماذا تفعل هنا.. انتشرت تلك الكلمة كالوباء بين جميع الجنيهات وسقط بعضهم مغشياً عليه وقال الجنيه الساخر:

هل سجنوك أنت أيضاً يا مستر دولار؟!..

تحسست ظهري في قلق وهممت أن أقول شيئاً ولكن فجأة فتح الباب وسطع ضوءُ شديد أغشى الأعين وأحسست بيد عملاقة تنتشلني أنا والدولار من وسط الظلام..

نظرتُ إلى أعلى فرأيت الصراف يضعني على الطاولة أمامه وهو يقول لتلك السيدة: ألف ومائتان وواحد دولار وعشرة سنتاً. معذرة يا سيدتي.. لا يوجد لدينا سنتات فاضطررت أن أعطيك ذلك الجنيه عوضاً عن العشرة سنتاً.

قالت السيدة في عدم مبالاة: لا عليك.. المهم أنك وجدت دولارات!

قال الرجل وهو يلتفت حوله. الغالي للغالي يا هانم.. أرجوك أبلغي سلامي للأستاذ فَنْجَري وقولي له: أنا تحت الأمر.

قالت له في برود: مفتاح الفيلا سيصلك غداً.. ثم أردفت في خبث: وهناك مشتر جديد سيشتريها منك بضعف الثمن بعد غد...

نظرت إليهما باستغراب ثم قلت للدولار: هل تفهم شيئاً؟!

قال لي بالإنجليزية: والله يا جنيه لم أسمع بتلك الصفقات في بلدى أبداً.. فبلدي بلد الاقتصاد الحر والحرية بصفة عامة كما تعرف و...

قاطعته بهدوء: حرية؟!

قال لي بتكبر: نعم الحرية والعدل و...

قاطعته: أي حرية تلك التي تتحدث عنها؟! هل من الحرية يا مستر دولار أن تفرضوا قوانينكم على الشعوب، هل من العدل أن تخوضوا حرباً شعواء بلا هوادة ضد الدينار؟!

رد عليَّ بصوت متعال: إننا نخوض حرباً ضد الإرهاب، هم الذين يضطروننا إلى ذلك وكما تقولون أنتم: الضرورات تبيح المحظورات.

قلت له بتهكم: من الواضح أنكم تؤمنون أن الدولارات هي التي تبيح المحظورات!

قال لي غاضباً: نحن نؤمن بالحرية كما قلت لك. هل تستطيع أنت أن تعيش بدون أن تكون مربوطاً بي؟

قلتُ: نعم بالطبع، إذا اتحدت مع إخواني ليرة وريال ودينار.

رد عليّ بسخرية شديدة: لن يحدث ذلك أبداً صدِّقني، وإن حدث فستختلفون في تسمية تلك الوحدة.. هل تسمونها جنيهاً أم ريالاً أم ديناراً أم ليرة.. وإن اتفقتم أن تأخذوا حرفاً من كل فئة فلن يكون إلا جردلاً فارغاً!.. إن ملأتموه فلن يُملى إلا بماء آسنٍ تغيّر طعمه، وإن ملأتموه بماءٍ غير آسنٍ فستختلفون فيمن يشرب منه أولاً، وإن اتفقتم في ذلك فسيحاول أن يشرب الماء كله وإن لم يفعل فسيبصق فيه قبل أن ينتهي. عندها يصبح الجردل قدامكم والبصقة أمامكم..

لم أرد عليه على الفور. مع أنني كنت أشتاط غيظاً من كل كلمة نطق بها إلا أنني لم أختلف معه فيما قال. فكرتُ قليلاً ثم قلتُ: ولكن ما دخلك أنت، نحن أخوة وأنت دخيل علينا. هب أن ديناراً بصق في الجردل كله، لماذا تتدخل أنت؟ نحن نستطيع أن نحل مشاكلنا بأنفسنا..

قال لي بتحسر مصطنع: أتعرف إن آفتكم الحقيقية هي الكذب على أنفسكم. أنتم لا تريدون الإقرار بخطئكم أبداً وتلك هي مشكلتكم الحقيقية.. ولذا فأنتم لا تستطيعون أن تحلوا مشاكلكم بأنفسكم أبداً.. ولذا يتعين علينا نحن أن نساعدكم في ذلك.

ـ لم نطلب منكم ذلك.

ـ لأنكم حتى غير قادرين أن تطلبوا ذلك.

ـ ولكن أمِن العدل أنكم تردون ماءنا صفواً وأن يكدر وردنا؟! أمن العدل أنكم تأكلون لحمنا ولا نجد كسرة خبزنا؟! أمن العدل أنكم تستولون على نفطنا ولا نجد طاقة يومنا؟! أهذا هو العدل الذي تتحدث عنه يا مستر دولار؟ أتلك هي حريتك المنشودة؟..

رد عليَّ وقد تبدل صوته الواثق: إن العدل والحرية يجب الحفاظ عليهما حتى ولو بالقوة.. وأنتم كشعب لا تملكون تلك القوة لتحرروا أنفسكم..

قاطعته: ولكن ليست هذه هي نواياكم الحقيقية إنكم تفعلون كل ذلك لتزيدوا من قوتكم الشرائية في العالم لأنكم تخشون من قوة مسيو يورو من ناحية وتدافعون عن الشيكل من ناحية أخرى.. نظر إلي نظرة عميقة وبدا وكأنه يهم أن يقول شيئاً ليرد عليه ثم تردد قليلاً وقال:

اسمع، ما رأيك أن نحاول أن نحسن علاقتنا قليلاً وأن نذهب في رحلة خلوية إلى شرم الشيخ؟

نظرت إليه بتعجب ثم قلت: ولماذا لا؟ فنحن بالفعل يتحتم علينا أن نهدأ من روعنا وننعم بقدر من الاستجمام..

قال لي بخبث: حسناً. إذاً هيا بنا..

قلت له بتعجب: ولكن كيف سنذهب إلى هناك؟!

أشار في هدوء إلى السيدة التي احتوتنا في حقيبتها وقال في خفوت: هي ستفعل..

اتسعت عَيْني وقلت له: إذاً فكنت تعرف أنها ذاهبة إلى هناك من البداية؟..

قال لي ببساطة وهو يشير إلى ظهره: بالطبع.. فنحن نثق في الله!!

التفتُ بجميع جسدي لأرى نفس تلك العبارة مكتوبة على ظهره.. تفقدت جسدي فلم أرَ إلا إمضاء المحافظ تعجبت وقلت في نفسي: فيمن نثق نحن؟!

وصلنا إلى شرم الشيخ في ساعة متأخرة منهكَين ولم يكف صديقي دولار طوال الطريق في أن يسرد لي كيف أنهم يتمتعون بالحرية والديمقراطية وكيف أنني لا أستطيع أن أحيا بدونه..

مددت رقبتي خارج حقيبة السيدة لأرى أين أنا فرأيت السيدة تتجه نحو محل لتأجير ملابس الصيد وتقول لصاحبه بالإيطالية: أهلاً أهلاً يا صديقي روبرتو. لقد جئتك بالمطلوب.

رد عليها روبرتو وقد انفرجت أساريره: مدام فنجري كيف حالك؟ كم معك اليوم؟

قالت له: ألف ومائتين وواحد دولار وعشر سنتاً: ثم قالت وهي تغمز له: وهذا الجنيه مقابل العشر سنتاً.

قال لها وهو يضحك: منتهى الذكاء يا مدام فنجري! هل تريدينني أن أشتري منك بسعر عشرة جنيهات للدولار.. هذا كثير جداً! إن سعره في البنك ما زال خمسة جنيهات وستون قرشاً يا مدام فنجري.

ردَّت عليه مسرعة: ولكنه سعر السوق يا روبرتو ثم غمزت وهي تقول: إن وجدته!.

قال لها متهكماً: ولكن الجنيه لسه بخيره يا مدام فنجري.

قالت له وقد نفذ صبرها: بكم ستشتري إذاً يا مستر روبرتو؟..

ـ ستة جنيه للدولار يا مدام فنجري.

أخذا يفاصلان حتى استقرا على سبعة جنيهات وأخذني روبرتو ودولار ووضعنا في غسالة كبيرة!

قال لي دولار: هل سمعت.. أنا أساوي سبعة من أمثالك..

قلت له بسخرية وتحسر في آن واحد: هذا في السوق السوداء فقط.. ثم تلفت حَوْلي وقلت متعجباً: ولكن أين نحن؟!..

قال لي الدولار بثقة: في مركز غسيل الأموال أيها المصري..

لبثنا في تلك الغسالة بضع ساعات وما أن خرجنا منها حتى اكتنفني دوار شديد أفقت منه على صوت رجلين يتناقشان في الخارج مع روبرتو قال أحدهما بفخر:

أنا العميد صاحي جداً من مكافحة تهريب الأموال أشار إلى زميله ثم قال: وهذا هو المقدم جمال نبيه من شرطة السياحة..

قال لهما روبرتو وهو يزدرد ريقه:

أهلاً وسهلاً.. كيف يُمْكنني أن أساعدكما؟!

قال له العميد صاحي: نريد أن نستأجر مركباً وأدوات للصيد..

استطرد الرائد جمال: بثمن خاص لنا طبعاً فنحن من الشرطة ويجب أن يكون لنا معاملة خاصة وتخفيض.

قال لهما روبرتو وهو يتصبب عرقاً: طبعاً. طبعاً..

دفعا له ثمناً بخساً ورأيت يد روبرتو تقتلعني أنا والدولار وتعطينا للمقدم جمال الذي وضعنا في جيبه باستهتار و.. وبدأت الرحلة..

وقلت له: لقد تعبت يا دولار متى سنصل؟

قال لي بخبث: اصبر.

ما هي إلا دقائق معدودة حتى أوقف العميد صاحي محرك المركب وبدءا في الصيد..

ما هي إلا لحظات حتى سمعت رنين المحمول الخاص بالمقدم جمال ثم سمعته يقول:

أهلاً يا عاطف.. ما أخبارك.. في شرم الشيخ.. نعم.. بالضبط.. ماذا تقول؟! متى؟!.. هل أنت متأكد؟..

نظر إليه العميد صاحي بترقب ونظرت أنا إلى دولار الذي ابتسم في هدوء وثقة وكدت أن أسأله ولكنه أشار إليَّ فمه أن اسكت لأسمع المقدم جمال فتابع:

وكم سيصل؟! نعم بالطبع.. نعم.. شكراً يا عاطف.. سأتصل بك أنا.. شكراً مع السلامة.

سأله العميد بشغف: ماذا هنالك يا جمال؟ قال له جمال وهو ينظر إلى البحر أمامه: لقد حرروا سعر الصرف.

اتسعت عين العميد صاحي وقال: ماذا؟ عوّموا الجنيه؟! نظرت إلى دولار الذي استمر يبتسم في هدوء وغموض وسألته قائلاً: ماذا يحدث أنا لا أفهم شيئاً على الإطلاق..

رد عليّ دولار: هل تتذكر حديثنا عن الحرية والعدل..

قلت له بشك: نعم ولكن..

قاطعني قائلاً: لقد جاءت لحظة الحسم يا عم جنيه.. الآن سنرى إن كنت تستطيع العيش بدوني أم لا...

وفي هذه اللحظة تماماً ارتفع صوت المقدم جمال الذي أمسك بسنارة حديثة في يديه وهو يصيح: يبدو أنني اصطدتُ شيئاً.. ثم قال بحماس: إنها سمكة كبيرة يا سيادة العميد. أعتقد أنها سمكة موسى فهي تجذب الحبل بشدة ثم ترخيه و... ثم تبدل صوته وهو يقول بصياح: لقد أمسكت بها.. لقد أمسكت بها!!

قال له العميد صاحي:

ـ اجذب خيط السنارة يا جمال.. اجذب بشدة..

جذب المقدم جمال السنارة بقوة حتى رأى السمكة المسكينة

وهى تتلوى ثم ضحك بصوت مرتفع وهو يقول: كم أحب الصيد في البحر الأحمر! أرأيت؟ إن الصيد في مصر ممتع بحق!! ألم أقل لك إنها سمكة موسى؟! ثم أردف قائلاً في خبث: أرأيت يا سيادة العميد؟ أنا لا أتمتع بالفراسة في عملي كشرطي فحسب بل وفي أوقات الفراغ أيضاً..

نظرت إلى السمكة المسكينة ثم إلى دولار فقلت في دهشة: دولار أنا لا أفهم شيئاً على الإطلاق.

قال لي وهو يضحك في خبث: هل تستطيع العوم؟

وقبل حتى أن أرد عليه رأيته يدفعني بعنف نحو البحر..

حاولت أن أتشبث به ولكنني فوجئت بأننا لم نعد مربوطَين كما كنا من قبل. حاولت أن أمسك بأي شيء ولكني لم أستطع. نظرت إلى رجلَي الشرطة فوجدتهما منهمكَين إلى فريستهما المسكينة ولم يكترثا إليَّ وأنا أسقط وأتهاوى نحو الماء..

أحسست بالماء البارد يغمرني وصرخت بهلع: دولار.. دولار أنقذني. أنا لا أعرف العوم.. أنقذني أرجوك..

قال لي في شماتة: لا أستطيع يا عم جنيه صدقني ليس بيدي شيء أستطيع أن أفعله صدقني..

صرخت إليه وأنا أصارع الموج: ولكنني لا أستطيع العوم يا دولار ــ لماذا فعلت ذلك؟

رد عليَّ: أنا لا أفعل شيئاً إنهم بنو قومك فلتسألهم أنت لماذا فعلوا ذلك معك الآن، هل صدقتني إن بني قومك لايستطيعون أن يتحملوا الحرية وحدهم. لا بد من قوة تقف معهم ويُربطون بها حتى تحمي لهم تلك الحرية...

صرخت فيه وأنا أقاوم الموج في يأس لتذهب الحرية إلى الجحيم أنا لا أستطيع العوم أنقذني يا دولار إني أغرق... أغرااااق....

بدأت قوتي في المقاومة تفتر شيئاً فشيئاً وبدأت أسمع دولار يكلمني من بعيد وصوته يخفت تدريجياً. وبدأت أحس بالماء المالح داخل فمي وأحسست بدوار شديد ثم استسلمت تماماً...

أخذت أغرق وأغرق إلى أعماق البحر وبدأت أفقد الوعي تدريجياً حتى لامست صخرة في الأعماق.

استندت إليها بوهن واستسلمت إلى مصيري المحتوم. ومن خلال الماء وبعيون زائغة رأيت السمكة الأم تقترب مني وتهمس في أذني: قم، لا بد من المقاومة...

أخذتني من يدي في رفق ثم أشارت إلى جانب مظلم واتسعت عيني في وهن فقد هالني ما رأيت: رأيت أجدادي: تعريفة وشلن ونكلة يخرجون من الظلام ويقولون لي في نفسٍ واحد:

مرحباً يا جنيه. لقد كنا في انتظارك، لقد حانت لحظة المقاومة... قلت لهم في ضعف: ولكنني لا أعرف العوم لابد من ربطي بدولار.

اقترب مني تعريفة وقال لي بحكمة: جنيه، هل تذكر درسك الأول؟

قلت له بتساؤل: درسي الأول؟!

قال لي: نعم ألا تذكر ما قالته لك المائة جنيه في بداية حياتك.

قلت له متذكراً: بلى، لقد قالت لي: ألا أدع المظاهر تخدعني.

قال لي: تماماً.. هذا ما نريدك أن تفعله الآن. لا تدع المظاهر تخدعك.. انس قوة دولار تماماً. فتلك القوة تستر ضعفاً لا حدَّ له..

عدت وقلت له: ولكنني لا أعرف العوم يا جدي تعريفة..

قال لي بفخر: سنعتمد على سواعدنا يا جنيه وسنقاوم. وسننتصر..

قلت له وقد دبَّ بعض الحماس في أوصالي: ماذا ننتظر إذاً؟

قال لي وهو ينظر إليَّ: ذلك الخيط والخطاف اللذين تدليا من أعلى: لا شيء يا بني... لا شيء. لقد حانت لحظة الحسم. وسننتصر يا بني ــ بإذن الله ــ سننتصر...

obeikandl.com